



الغرب الذي لا يأبه لروح القوانين

إدريس هاني*

لم تعد الوحشية اليوم مفهوماً نوعياً؛ بل أصبح العالم يختبئ خلف خطاب مُرتَهَنٍ لكَمِيَّةِ الجريمة، لا لنوعيتها؛ ما يثير التساؤل: كم بقي للاحتلال من درجات العنف والإبادة؛ لكي يجري تجريمه في المحاكم الدولية ذات الاختصاص، والتي يُهَيِّمِنَ على قرارها الغرب الإمبريالي؟

يسعى الغرب إلى تذكيرنا بأن قضية الاستسلام للإرغام هي عملياً أفضل من المخاطرة، لكنَّ السُّؤال: هل كان نتيا هو في وضعية مخاطرة بنفسه أم بالاحتلال كله؟ يجهل هذا الأخير حتَّى هذا المستوى من فلسفة الصِّراع. فالمخاطرة بزمنٍ فارغ من روح التاريخ¹ يجعل الاحتلال يفصل بين فلسفة التاريخ وفلسفة الصِّراع الهيجليين، صراع بلا أفُق؛ لأنَّ الاحتلال عاجز منذ «هرتزل» (Theodor Herzl) عن مُعَانَقَةِ المطلق فلسفياً وسياسياً، فأنطولوجيا الاحتلال مُختلَّة؛ لأنَّها منذ البدء قائمة بغير ذاتها، ولأجل غيرها. دازاين في ذروة الخداع السياسي يجد نفسه مخدوعاً تاريخياً وأنطولوجياً.

* مفكّر وباحث في قضايا الفكر الفلسفي والسياسي - المغرب.

1- هاني إدريس، زمن المحتلّ وزمن المقاومة، انظر كتاب: روح المقاومة وفلسفة الزمن، ط1، بيروت، دار الولاة، 2015م، ص 41.

العنف المفرط هو التعبير الممكن عن شعور جماعي بالاضمحلال التاريخي والوجودي. إن الشتات كان حلاً مناسباً لولا غواية «هرتزل»، كان مخرجاً تاريخياً؛ لأن الدولة تقليدياً باتت مستحيلة برسم لاهوت الشتات، فكيف بالدولة الحديثة بشروطها التعقيدية والجامعة؟

لن يحجب العنف المفرط الأزمة الأنطولوجية لكيان حرمة فكرة الدولة الممتنعة من نعمة الشتات. يلتف مرةً أخرى أبناء «هرتزل» - الذي ركب موجة «درايفوس» (Dreyfus) - على مكتسبات حقوق الإنسان، وفي حالة إسقاط مُغالط، يُصبح الكيان حالة استثناء؛ أي تسويغ الاضطهاد بنزعة المظلومية. إن صيب العنف سيستمر حتى يسقط عالم ويقوم آخر.

إن النظام الدولي، بمؤسساته وبنيته وفلسفته وشروطه الزاهنة، عاجز عن إحلال السلام، وعن تحقيق العدالة الدولية. لقد فقد مصداقيته، وأدى أغراضه. والغرب الذي رهن العالم لهذه العقيدة الدولية، سيجد نفسه إزاء أقدم المستعمرات، في مُنزلق لا رجعة فيه.

يصعب الحكم على اللحظة التاريخية الكونية، إلا من خلال التأكيد على أننا في أرجوحة لم تستقر بعد. المجال الترددي بين طرفي المعادلة لم يُحتو لصالح التركيب الخلاق. الاختلال الديالكتيكي نابع من عدم استقرار الأطروحة نفسها قبل ميلاد نقيضها. إن لحظة التركيب لم تتحقق بعد. إن ما يبدو اليوم ازدواجية في خطاب وموقف النظام الدولي، هو انعكاس لهذا التردد وعدم استقرار الرؤية البديلة للعالم، وهذه هي وضعيّة النظام الدولي العاجز عن احتواء النزاعات التاجمة عن عدم استقرار البيئة الدولية.

إنّ الهمجية التي أسفرت عنها موقف الغرب ورؤيته السوداوية للمعضلة الفلسطينية، تقع في هذا الإطار. إنّ المعضلة الأنطولوجية التي عانت منها الميثافيزيقيا الغربية، هذا الدأزين القلق المتناسي لوجوده، انتقلت إلى كيان الاحتلال بوصفه الحفيد الشرعي لرؤية الغرب نفسه للعالم.

لقد سعت الصهيونية إلى عزل اليهود عن الحلّ الحقوقي الكوني، فأصبحت المعضلة مضاعفة. المسألة فاقت «الغيتو» (Ghetto) السياسي والديني، لقد بات «الغيتو» أنطولوجيا، وهذا ما يُفسر حالة التوحد الجماعي لمحتل أخفى هشاشته الأنطولوجية قبل السياسية، في شعار تقني غير آبه بالأعراف الدولية.

ثمة ما يُؤكّد على أهميّة علم النفس الجيوبوليتيكيّ، حالة الذهان المزمّن الذي ينتاب الغرب الذي يرى في فرض الاحتلال إشباعًا لكبرياء مرضيّ لاحتلال تجاوز الحقيقة اللاهوتيّة للشّتات، وأقام لاهوتًا بديلاً عنها: لاهوت الدولة والإبادة. أن يكون للجماعة الأولى أو القبيلة الأولى قبل أن يخرق نقاءها الشّتات، حكاية هناك، هذا قصاره يُعزّز فعل التّعایش، لكنّه لا يمنح الشرعيّة، إذ الشرعيّة تتوقّف على اعتراف الآخر بذلك، كما ذهب «حنّا أرندت» (Hannah Arendt).

مُفارقة وجه «ليفيناس» (Emmanuel Levinas)

إذا أردنا استعارة مفهوم الوجه عند «ليفيناس»، وأيضًا مفهوم الخفاء الذي عالج به معضلة اليهود في أوروبا، فإننا ندرك أنّ تسويغ الجريمة بالاضطهاد، مفارقة تؤكّد بأننا أمام نشأة دولة ليست فقط قائمة على أوهايم «هرتزل» الذي عدّها واقعيّة، وإنما مشروع دولة مريضة سمّت النظام الدوليّ، بكونها مشروعًا للغرب مُهَيِّم على القرار الدوليّ. عن أيّ وجه سنتحدّث إذا، حين يتعلّق الأمر بمحاولة حلّ معضلة عدم الإدماج، باحتلال سافر؟

إنّ الشّعور بالخفاء، كما ذهب «ليفيناس»، هو بتعبير آخر تفجير لعقدة حقارة جماعيّة، ستجد تجليها الأعظم في تصعيد العنف المرضيّ المفرط ضدّ ضحايا «ترانسفير»، وضحايا حلم «هرتزل» ووعد «بلفور».

ينتاب الغرب صمت مريع، وتراجع، وخفوت، وازدواجيّة، وهروب من المسؤوليّة، وتخون المثقّف الغربيّ الشجاعة لتفكيك فكرة الكيان، حتّى «ليفيناس»، حين يتعلّق الأمر بالاحتلال، لن يجد مخرجًا غير التّنكر لفكرة الوجه وتفضيل القناع. المسألة تفوق أحيانًا الخوف، إنّ الغرب نفسه مُتّهم بحلّ معضلة على حساب إقليم آمن.

أصبح العالم اليوم أمام أزمة فائقة وخيار صعب، سيحدّد مصيره من خلال أسئلة لم تُعدّ تحتمل تأجيل الإجابة عنها:

- إما أن تتحقّق العدالة الدوليّة أو سينحدر العالم إلى حالة الانفجار الأعظم الذي لا رجعة فيه في العلاقات الدوليّة.
- إما أن يسقط الاحتلال أو يسقط الغرب.
- إما أن تُنصف غزّة أو يسقط القانون الدوليّ لحقوق الإنسان.

ما جدوى وجود قانون دولي بعد شهور متواصلة من الإبادة المعلنة؟

الغرب العميق؛ أي الغرب المتحيز أيديولوجياً ضد الشرق، والمتحيز إمبريالياً ضد الجنوب، في مواجهة مستحقات السياسة العنصرية، تلك التي أظهرت النظام الدولي في حالة من الهشاشة. إن هشاشة النظام الدولي قضية ملحة ووظيفية لاستمرار حالة الهيمنة.

ماذا في وسع الغرب أن يقدمه اليوم لجيل من الطلبة الجامعيين الذين كسروا طوق الصمت احتجاجاً على ازدواجية المعايير، وعجز الغرب عن أن يفرض هدنة وإيقاف الحرب في غزة؟

لقد ربح الغرب العميق كيان الاحتلال وخسر شعوبه، وكان ذلك منحدرًا يسير الغرب باتجاهه. إنها حافة الانهيار التي اختارها الغرب، لكنّه، وبدافع سُكر القوة المفرطة والهيمنة الشمولية، لم يأنه بقواعد انقلاب المشهد ومكر التاريخ. لم تقف ما كينة الإبادة في غزة منذ شهور متواصلة: كل يوم ثمة وجبة دم فلسطيني. مجرم الحرب لا يخفي واقع الحرب وأهدافها. إنها الإبادة والتّهجير والتّجوع، لا أحد يستطيع محاكمة احتلال في ذروة العُصاب، النظام الدولي عاجز عن الحديث عن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وفي ذيل كل قرار يُولد ميّتا، ثمة ما يوحي بأنّ الغرب يعطي الأولوية للحقّ في الاحتلال على حساب حقوق الإنسان، وحقّ الشعب الذي يقع عليه الاحتلال في الأمن الذي هو مسؤولية الكيان الذي يمارس الاحتلال.

تُرى، مَنْ يحتل مَنْ؟ وجب تصحيح المفاهيم.

إنّ الاحتلال يتحقّق بين دولتين، كما هو مُقرّر في القانون الدولي، لكن متى كانت «إسرائيل» دولة قبل الاحتلال؟ وهي لهذا السبب تتحدّث عن عدم وجود دولة فلسطينية قبل الاحتلال، ليتساوى الأمر وتختلط الأوراق. هذا مع أنّ كلّ الوثائق التي كانت تُوقّع في هذه الأرض تحت الانتداب الإنجليزي، كانت تُمضى باسم فلسطين. يتعلّل الاحتلال بهذا الوهم المفتعل، مع أنّ فلسطين كانت فيدرالية في داخل دولة إسلامية كبرى، كما سائر الدُول الإسلامية التي كان يديرها الباب العالي دُولتياً، قبيل اندلاع الحركة الكولونيالية الكبرى، باستثناء إيران الصفوية والمغرب السّعودي.

على هذا الأساس، إنّ مَنْ يحتلّ فلسطين هو الغرب وليس الكيان الإسرائيلي،

إلا من حيث أنه صناعة غريبة بامتياز. ولن نتحدث عن أكبر خدعة غريبة صدرها للشرق لحل أزمة مزدوجة: التخلُّص من اليهود من جهة، وتعزيز الهيمنة على الشرق الأوسط، من جهة ثانية. ومع أنه فشل في تحقيق الهدف الأول؛ لأن وجود إسرائيل لم يُخف من هيمنة اللوبي الصهيوني على الغرب، الذي فاق مفهوم الأقلية، ليصبح حالة مركزية في صناعة القرار السياسي الغربي. كما فشل الهدف الثاني مع صعود نجم المقاومة وحركات التحرر الوطني في المنطقة.

لا وجه للاحتلال

لم يستطع تاريخ الكذب أن يكشف عن خداع الموضوعية؛ ذلك لأن التآمر على النقاء الذاتي كان دافعاً لاختراع الموضوعية. فهي من ناحية تشنيع على الذاتي، كما أنها من ناحية أخرى، طهرانية خفية، أي أن الموضوعية حرفة الذات المتعالية؛ لأنها من دون هذا الشرط تصبح معضلة إبستمولوجية.

إن قادة الاحتلال في وضع مفارق، وفي الوقت الذي يدركون أنهم يقومون بدور الإطفائي للنار التي أشعلتها فكرة «هرتزل» عن الدولة اليهودية، زادوا في تأجيجها هرباً إلى الأمام. لم تعد فكرة الدولة سوى تهديد للنظام الدولي برمته، لم تعد حتى تريباقاً للشئات، أو بتعبير «موريس بلانشو» (Maurice Blanchot): «الشفاء من المنفى».

لقد ناضل الاحتلال بالعنف الممكن والإبادة الشاملة؛ لكي يكون له وجه، لتحدث عن وجه «ليفيناس»، لكنه في نهاية المطاف أظهر وجهاً يقطر دمًا وصديداً، وجه مصاص دماء. لقد تجاوز «ليفيناس» مفهوم الآخر بيولوجياً، وحتى أنطولوجياً للإمساك بالآخر في مسؤولية أخلاقية، لكنه في لحظة إمبريالية واستيطان لا أخلاقي فقد وفاء لنظريته، ولم يتجاوز القبيلة.

يراهن على السلام، ولكن من دون عدالة، والسلام مع الاحتلال هل هو مسؤولية أخلاقية؟ أليس «ليفيناس» هو من منح التعريف الأكثر تحرراً لليهودي، تحرير حتى من فكرة الأرض؟

ففي (1961م) (Heidegger, Gagarine et nous)، يُحدّد مفهوم اليهودية بأنها كانت دائماً حرّة في ما يتعلّق بالأماكن، وبذلك ظلّ مخلصاً لأعلى القيم. غير أن «ليفيناس» الذي يمنح للاحتلال الحق في الدفاع عن النفس، يتناسى

السؤال الأخلاقي الأهم: أرض مَنْ؟ وكان قد منح السلام مع السادات في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977م، أهميّة فائقة، بل لقد منحه صفة تاريخيّة مشابهة للخطوات الأولى للرجل على سطح القمر¹.

مفارقة «درايفوس»

يواجه الغرب اليوم ضغط الذاكرة، منذ أن انقلبت عليه الأساطير المؤسّسة للغرب، على الأقل في مثال «درايفوس» وفرنسا التي لا تزال تعاني الانقسام الحاد². ولا يمكن تفسير الأحداث السياسيّة، بما فيها الانتخابات، خارج ضغط هذا المصير. ففي الانتخابات الأخيرة سيُحقّق التّجمّع الوطني فوزًا ضاربًا لم يُرضِ

1- <https://www.philomag.com/articles/levinas-et-israel-lethique-lepreuve-du-politique>.

2- قضية دريفوس: اتّهم النقيب في الجيش الفرنسي «ألفريد دريفوس»، وهو فرنسيّ الجنسيّة يهوديّ الديانة، بالخيانة. وقد هزّت هذه القضية المجتمع الفرنسيّ خلال اثني عشر عامًا من 1894م وحتى 1906م. بدأت الفضيحة في كانون الأوّل/ديسمبر 1894م، عندما أُدين النقيب «ألفريد دريفوس» بالخيانة، كان «دريفوس» يبلغ من العمر 35 عامًا، وهو ضابط مدفعيّة فرنسيّ ألزاسيّ من أصل يهوديّ، وحكّم عليه بالسّجن مدى الحياة بتهمة نقل أسرار عسكريّة فرنسيّة إلى السفارة الألمانيّة في باريس، وسُجنَ في جزيرة الشيطان في «جيانا» الفرنسيّة، حيث أمضى قرابة خمس سنوات. وفي وقتٍ لاحق، قام الكاتب الشهير «إميل زولا» بدعم «دريفوس»، ما ضغط على الحكومة لإعادة فتح القضية، بعدما نشر مقال بعنوان «أنا اتّهم»، المقال الذي نُشر في 3 شباط/فبراير عام 1898م، في صحيفة «لا أوروبور» (L'Aurore) الفرنسيّة، اتّهم فيه «زولا» وزارة الحربيّة والمحكمة العسكريّة في باريس، بتضليل الرّأي العام وإخفاء الحقائق وانتهاك حقوق المُتّهم «درايفوس». وقد تجاوبت مع هذا التّحرّك صُحف عالميّة في كلّ من إنجلترا وألمانيا، هولندا، والولايات المتّحدة الأمريكيّة، واتّهمت السّلطات الفرنسيّة بالتلفيق وحياسة المؤامرة ضدّ مُتّهم بريء هو «درايفوس»، وكان هذا مدعاة لصحف فرنسيّة لتهاجم «زولا» وتّهمه بالكذب والتضليل، وتوكّد إدانة «درايفوس»، وتقول: إنّ حملة «زولا» تهدف إلى تشويه سمعة الحكومة الفرنسيّة، وإنّه أداة بيد اليهود. في عام 1899م، أُعيد «درايفوس» إلى فرنسا لمحاكمة أخرى. أسفرت المحاكمة الجديدة عن إدانة أخرى وحكّم عليه بالسّجن لمُدّة 10 سنوات، لكن حصل العفو عن «درايفوس» وأطلق سراحه. في عام 1906م، تمّت تبرئة «درايفوس» وإعادته إلى رتبة رائد في الجيش الفرنسيّ، حدّم خلال الحرب العالميّة الأولى بأكملها، منهياً خدمته برتبة مقدّم. تُوفّي عام 1935م.

الحساسية الصهيونية المفرطة، تلك التي باتت حالة تُهَيِّمَن على أليات صناعة القرار في الغرب، وتالياً تأثيرها الحاسم في مصير النظام الدولي.

لقد ساهم طوفان الأقصى في صعود اليسار، النتيجة التي سيرى فيها «برنار هنري ليفي» (Bernard-Henri Lévy) مبعث خوف، كونها استمراراً لذلك اليمين المُتحوِّر، وتالياً فهي استمرارية. الغريب أن «برنار هنري ليفي» يتحدث عن فرنسا «فولتير» (Voltaire) و«جان بول سارتر» (Jean-Paul Sartre) ... وهي العبارات الرنانة التي جاءت في سياق الدفاع عن الفرد في دولة القانون، وليس عن كيان محتل. ليس خوف «برنار هنري ليفي» على اليهود في فرنسا، بل خوفه على موقف حكومة اليسار من الاحتلال. وانقسام فرنسا ونخبة الفكر فيها حيال مثل هذه القضية لم تخلُ منه حقبة قط. ويُمثِّل «ريمون آرون» نموذجاً آخر من المدافعين عن الاحتلال.

لقد كان «ريمون» قلقاً جداً من فعل المقاومة العربية، إنه يرى فيها مصدر قلق للاحتلال¹، بحيث لم يُعدَّ بإمكان رئيس حكومة، حتَّى وإن تعلَّق الأمر بـ«ديغول» الذي قاد معركة التحرير ضدَّ النازية، أن يتحدث بما لا يُرضي، أو حتَّى لا يُحسن الإفصاح عن حقِّ الاحتلال في الاحتلال.

عند كلِّ نازلة أمميَّة، يُتأكد أن الحقوق الأساسية والحريَّات والكرامة التي جعلها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ملهمة للقانون الدولي لحقوق الإنسان المُلزم، ليست عامَّة تضمن المساواة. هنا يُتأكد أن المحكمة الدولية لا تدين فعل الإبادة حين يتعلَّق الأمر بالمتغلب، إلا بعد أن يصبح الأمر غاية في التعقيد، لكن ما الأثر القضائي على رأي استشاري في غياب قرار أممي حقيقي حاسم؟

وسوف يستمر الجدل القضائي بخصوص حالة التمييز العارمة التي لم تكن قضية غائبة منذ الحرب العالمية الثانية، حين وُلدت المحكمة الدولية لمتابعة مُجرمي الحرب، ولا سيَّما في الدول التي خسرت الحرب. لم يذكر «وليام بلوم» أمراً جديداً حين تناول، في أحد فصول الدولة المارقة، قضية اللأمفكر فيه، تفاصيل تلك المحاكمات، وقد ضرب أمثلة شافية شرقاً وغرباً، مؤرِّخاً لمسار طويل ومأساوي من سياسة التدخُّل.

1- Henry Laurens, Raymond Aron analyste du conflit israélo-arabe, Matériaux pour l'histoire de notre temps, N° 96, 2009, Éditions La contemporaine.

وتحديداً بالنسبة إلى الشرق الأوسط (1956م-1958م)، فمذهب «إيزنهاور» (Eisenhower) الذي أصبح متداولاً، يقضي بأن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة للتدخل العسكري لمساعدة دول الشرق الأوسط إذا ما تعرضت للتدخل الشيوعي. وهذا يعني لا حق لأي دولة أن تُهيمن على الشرق الأوسط، على آبار النفط، غير الولايات المتحدة الأمريكية، ومن حاول ذلك، فسيدخل في حكم الشيوعيين. ولهذا السبب تمت محاولة تغيير النظام في سوريا مرتين، وتمّ التدخل في لبنان، ومحاولة اغتيال عبد الناصر للتخلص من إخراج نزعه القومية العربية¹. الجدير بالذكر، أن مبدأ «إيزنهاور» الذي يُحاسب حتى دول المنطقة، سيعدّ الدفاع عن السيادة بمثابة نزعة إلى الهيمنة.

هل بإمكان المحكمة الدولية أن تُصدر محاكمة قادة الاحتلال، كتلك التي ألزمت بها نفسها في ملاحقة قادة اليابان وألمانيا وصولاً إلى «بينوشي»؟ لا يتعلّق الأمر هنا برغبة أو خوف أو أي صفة ذات بُعد شخصي، بل هي أزمة بنيوية في بيئة دولية الحاكم فيها هو السياسة الدولية، وليس القانون الدولي.

ماذا يعني انتظار لحظة تحقيق الاحتلال كل أهدافه بواسطة الإبادة؟

إنّ الاحتلال سيكون أكثر حصانة أمام المحكمة، ما دام حقق انتصاراً، وما دام الغرب العميق غير الآبه بروح القوانين، مستمراً في مساندة الاحتلال. وبينما كان الاحتلال في ذاته شراً، قادتنا السياسة الدولية إلى تجاوز هذه البديهية القانونية، لتحدث عن احتلال يُدافع عن نفسه، وأنّه لهذا السبب له الحق في الدفاع عن نفسه بواسطة الإبادة. لم يعدّ القانون الدولي يحتفل بألوية تقرير المصير والحق في التحرر الوطني. إنّ المقاومة باتت تهديداً للنظام العالمي، وليس الاحتلال. وكلّ هذا يمكن أن يدخل في ما أسماه «ويليام بلوم» (William Blum) باللامفكر فيه. إنّها فكرة المظلومية التي لا مخرج منها سوى سياسة استيطانية ظالمة، وإبادة لا مثيل لها في تاريخ الجرائم.

في فرنسا، نشأت الحساسيّة الأولى التي ستنتهي بتفجير المسألة اليهودية ومعاداة السامية التي استغلّها «هرتزل» في التنظير لمشروع الدولة اليهودية، من ناحية أنّ الدولة هي الجواب الحصريّ على المسألة اليهودية.

انقسم الرأى العام الفرنسي، وكانت قضية «درايفوس» ضمن الحلّ الحقوقي

1- William Blum: L'Etat Voyou, L'Aventurine, Paris, 2002, p. 174.

العام، لكن «هرتزل» سيحرف الأنظار إلى حلّ لا يتناسب مع الواقعة، حلّ جيوبوليتيكيّ، يجعل الحلّ في دولة، ولكنّها ليست دولة يتقرّر مصيرها حيث هي، بل ستنتقل من كلّ حدب وصوب ناحية أرض مأهولة وموصولة بتاريخ خاصّ. سيكون الحلّ بزعة النّظام الدّوليّ، بتغيير الخرائط، بالاستناد إلى الاحتلال والإرغام والإبادة؛ أي شرعية القوّة والتّقدم.

صرّح «هرتزل» في كتاب الدولة اليهودية¹ بأنّ فكرة إقامة دولة يهودية التي يطرحها هي فكرة قديمة جدّاً، ولكنّها بعد أن نامت ردحاً من الزّمن، ها هي تستيقظ من جديد، في سياق مناهضة اليهود التي يتردّد صداها في العالم. وطبعاً، لا يخبرنا «هرتزل» عن مسار فكرة الدولة اليهودية وتاريخها، لنعرف كيف نشأت الفكرة، وكيف جمدت في وقت من الأوقات، ولكنّه يزعم أنّ هذا هو وضع اليهود وليس هو من اخترع تلك الظروف التاريخية. ويرى أنّ مواد البناء التي يرسم لها المخطط موجودة في الواقع، ويعترف أنّ ما هو بصده ليس ضرباً من الخيال، بل هو مزيج من الواقع والخيال.

يتعيّن على القارئ في أسس التّنظير لهذه الدولة المزيجية، بتعبير «هرتزل»، أن يقف على مفارقة، كان «هرتزل» واعياً بها، فهو منذ البداية لم يتحدّث عن مدينة فاضلة، ولا قصّة رومانسية، ولا يوتوبيا ترفيحية. ولذلك، فهو يعلن عن اختياره لكتاب الأرض الحرة (Terre Libre) للدكتور «تيودور هرتزل»؛ ليُفسّر الفارق بين مشروعه والمدينة الفاضلة. فكرة الأرض الحرة هي، في نظره، أشبه بمزحة. يقوم مشروع «هرتزل» على قوّة دافعة وواقعية، وهذه القوّة هي ما سمّاها بمحنة اليهود، لكنّه يرى مراعاة الرّأي العامّ اليهوديّ بخصوص الجواب عن السّؤال: فلسطين أم الأرجنتين؟

وفي البحث عن الشّرعية، فقد سبق حديث إقامة الدولة، الحديث عن تعيينها. كانت طلباً في إطار ملتمس، يقول «هرتزل»:

«تعدّ الأرجنتين إحدى الدّول طبيعياً على وجه الأرض، فهي تتميّز بمساحة هائلة وقلة عدد السّكّان ومناخ معتدل. سيكون لجمهورية الأرجنتين المصلحة

1- Voir: Théodore Herzl, L'état Juif, Essai d'une Solution de la Question Juive, Édition Augmentée, Introduction par Baruch Hagani, Paris, Librairie Lipschutz, 1926.

الكبرى في التنازل لنا عن قطعة من الأرض. صحيح أن التسلّل اليهودي الحالي قد أنتج مزاجاً سيئاً هناك. ولذلك، سيكون من الضروري أن نشرح لجمهوريّة الأرجنتين الفرق الأساسي في الهجرة اليهوديّة الجديدة».

يتحوّل «هرتزل» إلى ملتمس آخر، هذه المرّة من الباب العالي، بحيث يكتبي الأمر منحي آخر غير «محنة الأضطهاد»، وسيعرض رشوة ماليّة على تركيا، وفي الملمس نفسه يرسم وظيفة كيان دخيل، بوصفه عازلاً ضدّ الشرق الذي يصفه بالبربريّة، حين يقول:

«فلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنسى. وهذا الاسم وحده سيكون بمثابة صرخة حاشدة قويّة لشعبنا، ولو أعطانا جلاله السلطان فلسطين لُكُنّا واثقين من تسوية ماليّة تركيا بشكل كامل. بالنسبة إلى أوروبا، سنُشكّل قطعة من المتراس ضدّ آسيا، وسنكون الحارس المتقدم للحضارة ضدّ البربريّة. وسنبقى، كدولة محايدة، على اتصال دائم مع أوروبا كلّها، التي ينبغي أن تضمّن وجودنا. وفي ما يتعلّق بالأماكن المقدّسة للمسيحيّة، يمكننا أن نجد شكلاً من أشكال تجاوز الحدود الإقليميّة ينسجم مع القانون الدوليّ. وسنُشكّل حرس الشرف حول الأماكن المقدّسة، ونضمن بوجودنا القيام بهذا الواجب. وسيكون حرس الشرف هذا بالنسبة إلينا الرّمز الأعظم لحلّ المسألة اليهوديّة، بعد ثمانية عشر قرناً من المعاناة القاسية».

لا قوّة الغرب ولا غناه يستطيعان تجميع هذا الشّتات إلى الكيان الجديد، إنّه الشّعور بالاضطهاد؛ هكذا يؤكّد «هرتزل» الذي تساءل حول كلّ مقومات الكيان الجديد؛ اللّغة، الدّين، شكل النّظام، الجيش، العلم... إنّ منح الدّين العامل الأساسي في توحيد الشّتات لا يعني عند «هرتزل» الوقوع في الثّيوقراطيّة، وبعبارة: إنّ كان الدّين يحافظ على وحدتنا، فالعلم يُحرّرنا.

ويعترف «هرتزل»، من دون أن يعي لحظة وقوعه في المفارقة، بأنّ معاداة السّامية لا توجد إلّا في أماكن معزولة نابعة من حالة تعصّب ديني قديم.

يبقى السّؤال: لماذا إصرار «هرتزل» على أن يكون الحلّ الوحيد للمسألة اليهوديّة هو تأسيس دولة، ما دام يعترف بأنّ معاداة السّامية تكاد تكون معزولة، ومسألة «درايفوس» هي من هذا القبيل؟

العرب سيدفعون الثمن

العنصرية موضوع للجغرافيا السياسي. يمكن حل المسألة اليهودية بسوق الحشود التي بدت غير نافعة إلى شرق أوسط، هو الفاصل بين الغرب وآسيا العميقة من جهة، وبين الغرب وأوراسيا من جهة أخرى. الميراث الروحي للشرق الأوسط والطاقة. لكن الغرب سيحتفظ بزبدة اليهودية الرأسمالية في مركزه. حتى ذلك الوقت، كان اليهود في المجتمعات العربية يواصلون تعايشهم الأفضل مقارنة بأوروبا؛ بل لقد شهدت قضية «درايفوس» حالة تضامن عربية من رواد الإصلاح يومئذ. تفاعل محمد رشيد رضا مع قضية «درايفوس» في العدد الأول من مجلة المنار 1898م، ومع نداء «إميل زولا» (Émile Zola) الشهير (إنني أتهم)، وكان محمد رشيد رضا قد حذر من انتقال نزعة التعصب والميل العنصري إلى مصر عبر الصحف المتأثرة بالإعلام الفرنسي آنذاك. مضمون تعليق محمد رشيد رضا جاء طافحاً بفلسفة حقوقية مدنية متقدمة على فرنسا، ما يؤكد أن حركة الإصلاح العربية يومئذ لم تكن مجرد ملهمة من النهضة الفرنسية، بل كانت تقف موقف الاعتدال، وتنطوي على منطق نقدي وتجاوزي أيضاً.

جاء مقال محمد رشيد رضا في المنار تحت عنوان: «اليهود في فرنسا وفي مصر»¹:

«لقد شاعت أنباء المشاكل السياسية التي قامت في فرنسا إثر مسألة «درايفوس» وقضية «زولا»، وما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة»، ويقول: «ولا يحسب القراء أن هذا الاضطهاد قد نشأ عن تعصب ديني في الأمة الفرنسية (...) أما مصدر هذا الاضطهاد فالتعصب الجنسي (يقصد العرقي) والحسد الذميمة، أثارتها في صدور الأمة (الفرنسية) فئة من أرباب الجرائد المعادين لليهود الطامعين بما في أيديهم من خزائن الأموال».

ويعدُّ مقال محمد رشيد رضا في المنار شهادة حية على أن العرب انحازوا إلى قضية «درايفوس»، وبأنهم انخرطوا من خلال طلائع الإصلاح في رفض التمييز والتعصب. حتى أن محمد رشيد رضا نبه إلى خطورة ما تنقله بعض الصحف المصرية آنذاك مما تُروجه الصحافة الفرنسية، حين قال: «ومن الغريب أن داء الجرائد الفرنسية قد سرى إلى بعض الجرائد المصرية فقامت تُصلي اليهود نارا

1- محمد رشيد رضا، مجلة المنار، المجلد الأول، ص 53-55، القاهرة، 1898م.

حامية، وتأخذ عليهم مهارتهم في الكسب وتفننهم في أساليب الرّيح. أمّا نحن، فإنّ رأينا، أنّ الحرّية العموميّة ليست مُختصّة بفريق دون فريق. فإنّ التّمُدّن الصّحيح والعدالة الحقيقيّة يفرضان المساواة المطلقة بين جميع بني الإنسان في المنافع العموميّة».

ويؤكد محمّد رشيد رضا أنّ هذا الوباء، وباء التّعصّب والعنصريّة، غربي لا شرقيّ، ويُنْبِئُه إلى خطورة دخوله إلى الهيئة الشّرقية بعد أن استفحل في فرنسا، فيأمل قائلاً: «المأمول أن لا يدخل الكتاب في هيئتنا الشّرقية عاملاً جديداً للنّزاع والشّقاق، فحسبنا ما لدينا من تلك العوامل القبيحة، وإنّا الآن أحوج إلى عوامل الاتّفاق منّا إلى عوامل الشّقاق، وعسى أن يستفيد إخواننا الشّرقويّون، ولا سيّما المسلمون منهم، بما نقص عليهم من أحوال الأمم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾»¹.

سُلالة الإمبرياليّة الغربيّة

ثمّة ما هو مزيج في تشكّل الكيان؛ مثل وريث لثقافة الضّم والاستيطان، وثقافة الاستكبار والعنصريّة، وثقافة الإبادة والمحق. الحقيقة التي باتت معلنة، أنّ كياناً كهذا ما كان ليوجد لولا الغرب، وهذا واضح من شتّى النّواحي².

يُقَدِّمُ أستاذ الفلسفة السياسيّة، من أصول سويسريّة «تيري هينتش» (Thierry Hentsch) (1944م-2005م) مقارنة واضحة تُؤكّد هذا الإسناد الشّموليّ للاحتلال، وهو في نظره إسناد مادّي ومعنويّ، وهو يُؤكّد على السّياق والشّروط التي وُلِدَ فيها هذا المشروع، فيذكر بالمقولة السابقة لـ«هرتزل»: «بالنسبة إلى أوروبا، سنشكّل هناك [في فلسطين] قطعة من السور ضدّ آسيا، وسنكون الحارس المتقدّم للحضارة ضدّ البربريّة».

مشروع الاحتلال، هو في نظر الباحث نابع من حركة غربيّة وبضغط من الغرب، بدأ أوروبّيّاً وواصلته الولايات المتّحدة الأمريكيّة. ما كان إذاً لليهود المعارضين لـ«هرتزل» أن يلتزموا بمشروعه إلا في حال استهدف فلسطين، ومن هنا ما كان

1- سورة غافر: الآية 13.

2- Thierry Hentsch: L'ombre de l'Occident dans le conflit israélo-palestinien. <https://cjf.qc.ca/revue-relations/publication/article/lombre-de-loccident-dans-le-conflit-israelo-palestinien/>.

بالإمكان نجاحه في داخل الغرب؛ لأنَّ هدف الإمبريالية الغربيّة، حسب الكاتب نفسه، هو التغلغل في الممرّ الإستراتيجيّ الرّابط بين آسيا وأفريقيا.

وعلى هذا الأساس، يقول «تيري هينتس»: «

«إنَّ إنشاء دولة تُدين بوجودها للغرب وتعتمد على دعمه من شأنه أن يُدْمِر إلى الأبد إمكانيّة قيام القوميّين العرب بتحقيق الدّولة الموحّدة التي طالبوا بها مقابل دعمهم العسكريّ للقوّات المتحالفة ضدّ العثمانيّين خلال الحرب العالميّة الأولى». وسنجد هنا تذكيراً بوعديّين؛ فلقد سبق أن وعد الغرب العرب بالسّماح ببناء دولة عربيّة على أنقاض الاحتلال التّركيّ، لكنّ بريطانيا نفسها ستنسخ وعداً بحقّ مشروع بوعد بغير حقّ: وعد بلفور. وحسب «تيري هينتس»، فإنّ المؤسّسة العسكريّة البريطانيّة يومئذ أدركت أنّه لا مناصّ من تحقيق المشروع الصّهيونيّ بالقوّة وضدّ إرادة الشّعب الفلسطينيّ.

يشرح بلفور لرئيس وزرائه أنّ مبدأ تقرير المصير، بالنّسبة إلى فلسطين، لا يستحقّ أن يُحترَم في مواجهة «أهميّة العالم للسلطة الفلسطينيّة... ومن الواضح أنّ هذا التأكيد سيُضاف لاحقاً إلى ضخامة الشّعور بالذّنب، والذي لن يكون لدينا أبداً وسائل قويّة بما فيه الكفاية لقمعه. ومع المحرّقة، بل والأكثر من ذلك، مع عجز حضارتنا عن مواجهة مثل هذه الهاويّة، أصبحت لدى (دولة إسرائيل) علاقة لا تتضب مع الغرب»¹.

الصّدع الحتميّ لاحتلال في ذروة العنف

يُقَدِّم الكيان فكرة كاملة، عن الطّريقة التي هيمنت بها الإمبريالية الغربيّة نفسها على أمم وشعوب كثيرة. كانت تلك الأمم - ولا تزال - تُؤمّن عبثاً بوجود أعراف إنسانيّة في الحدّ الأدنى من الاعتبار يرهاها قانون دوليّ يُفترض فيه الإنصاف. لقد كانت فكرة الإبادة قديمة، تسبّبت في انقراض شعوب وأمم، لا شيء جديد في ما تبدو عليه ذروة العنف الرّاهنة، فلا يزال الاحتلال وفيّاً لتلك التّزعة التي لن يحاسبه عليها الغرب الذي مارس الإبادة، وانتهك تنويره المزدوج الذي فضحته الإمبريالية

1- Thierry Hentsch: L'ombre de l'Occident dans le conflit israélo-palestinien.

<https://cjf.qc.ca/revue-relations/publication/article/lombre-de-loccident-dans-le-conflit-israelo-palestinien/>.

في قمعها الشمولي وعنصريتها الفائقة، بل فصلَ بين الأنسنة والعقيدة العسكرية. لقد ردَّ الاحتلال على كلِّ الاتِّهَامات بالإبادة وقتل المدنيين، بالكذب، وبإدعاء أنَّ المقاتلين يختبئون خلف المدنيين. فهل كان الاحتلال ينتظر من المقاومين أن يختاروا أسلوب الحرب الكلاسيكية حتَّى تحصدهم طائرات يختفي خلفها جيش عاجز عن خوض حرب بريّة؟ ترى من يختفي خلف التَّقنيّة، وخلف البوارج الغربيّة، وخلف نظام دوليّ ينطوي على فجوة الاستثناء تُجاء احتلال مُنح الحقّ في الإبادة؟

هؤلاء الذين يُقاومون احتلالاً استثنائياً، همُ بالفعل حالة استثنائية في الكون المُقاوم. إنهم يُقاومون بُنيّة عنف دولي، وعالم سقط في الحضيض، وعالم يتصالح مع الإبادة. لقد ردَّ الاحتلال على مبادرات التَّهدئة بمزيد من العنف، وعلى الوساطات، باغتيال رئيس حركة حماس إسماعيل هنيّة في شمال طهران، وبالتَّصعيد في جنوب لبنان، وبالتَّحرُّش بسوريا، بمجزرة مدرسة التَّابعين. وهو حتّمًا سيتمادى حين يرى البوارج الغربيّة تتحرَّك باتجاه المنطقة لحمايته، ومجد تفوقه في سحق المدنيين وقتل الأطفال. لقد قرَّر الإثخان في ممارسة عنف الاستثناء. لم يعد ثمة وقت للتفسير، أو للحجاج، فالتضليل الشمولي يُحاول حشر العالم في نقاش خاطئ، انقلاب على البدهة. إنَّ المُدان اليوم هو عالم بأسره، مجازر في حقِّ الأطفال والمدنيين، لا وجود لمسوغات أمام عالم يفقد كلَّ قيمه الإنسانيّة والتحرُّريّة حين يتعلَّق الأمر بمحاسبة الاحتلال.

حين يتعلَّق الأمر باحتلال، وبمأساة الإنسان، وبالإبادة، والظلم، تنتهي مُغالطة الهويّات، والأيدولوجيات، واللُّتيا واللُّتيا، يتجرّد الإنسان، ليصبح معيار الهويّة الصّحيحة هو أن تكون إنساناً، فمنَّ خان الإنسانيّة خان الهويّة، من خرق الدائرة الكبرى يوشك أن يخرق الدائرة الأصغر.

المجتمع الغربيّ يتَّهم: «مكافي» (Noëlle McAfee) مثلاً

اليوم، الجيل الجديد، مع الحراك الطلّابيّ الذي يستعيد موقف «إيميل زولا»: «إنِّي أتهم»، لكن حتّى هذا الهامش لم يعد مسموح به في غرب فقد كلِّ مصداقيّته أمام الرّأي العامّ الذي انتفض ضدَّ صمت الغرب وانحيازه إلى صفِّ الإبادة الجماعيّة.

في قضية «درايفوس»، برز دور المثقف، بل مفهوم المثقف الذي اقترن بالاحتجاج، بالاشتباك مع القضية الأبرز، يكتب في مجلة الفجر، اتهامه المباشر، ويؤسغ ضرورة أن يصدح بهذه الحقيقة يوم جرى اختطاف قرار المحكمة وتهريب القضاء، يقول: «وبما أنهم تجرأوا، فسوف أجرؤ أيضًا. سأقول الحقيقة؛ لأنني وعدت أن أقولها، إذا لم تتحقق العدالة، التي تم الاستيلاء عليها بانتظام، كاملاً. واجبي هو أن أتكلّم، ولا أريد أن أكون متواطئاً. سيطاردني في لياليّ شبح ذلك البريء الذي يرزح هناك تحت أفضع عذاب، عن جريمة لم يرتكبها»¹.

المجتمع المدنيّ الغربيّ يغلي، بكلّ فئاته، بما فيها الحركة النسائية. ليس من باب الاستثناء، فلقد كانت الفلسفة منذ نشأتها مُناضلة. اليوم يبدو ذلك واضحاً، حين انتشرت صورة «نويل مكافي»، رئيسة قسم الفلسفة بجامعة «إيموري» (Emory University) في (أتلانتا الأمريكية)، مُقيّدة بالأصفاد تعقلها الشرطية بسبب مشاركتها في الاحتجاجات المساندة لفلسطين. وفي موجة اجتاحت الجامعات الأمريكية، ثمّة حركة نشطة غير مسبوقة، تتبلور في اتجاه مزيد من الإنصاف للقضية العادلة.

تحدّث بعض وسائل الإعلام، عن التحدّي الذي تُواجهه تلك الجامعات، وعليها أن تختار بين حُرّيّة التعبير أو أموال اللوبي الصهيونيّ. بالنسبة إلى «نويل مكافي»، في ما ذهب إليه «إدواردو ميندييتا» (Eduardo Mendieta)، تُركّز على المجال العامّ في الأوقات المظلمة، وتحديدًا على الدوافع الراديكالية خلف تصوّر «هابرماس» (Habermas) للمجال العامّ، والذي لا يزال نموذجاً مفيداً، كما تُجادل، للتنافس السياسيّ والمداومات اليومية العامة. وبالنسبة إليها، قد يمنحنا فهم «هابرماس» للمجال العامّ بعض الأدوات لجعل أنفسنا نقاوم «التفاهة» والأخبار الكاذبة. ولعلّها أدركت اليوم جانباً من تلك الخلفيات الراديكالية، وكانت في مقاربتها تلك أكثر إنصافاً وتحقيقاً في مفهوم الاضطهاد.

خرقت «نويل مكافي» القبة الحديدية لكلّ الخلفيات المظلمة حقاً، والتي تُهدّد أسس التحرّر ومناهضة التمييز العنصريّ والعدالة الإنسانية. لقد خرقت النفاق الغربيّ، ولكنها في الوقت نفسه تُقدّم صورة عن الضغوط المهولة التي يواجهها

1- J'Accuse...! Lettre au Président de la République par Émile Zola, L'Aurore, 13 janvier 1898.

المثقف الغربي الحرّ، حينما يخرق القبة الحديدية للنفاق، إننا أمام حالة من الماكارثية الجديدة.

وفي الوقت نفسه، تُقدّم «نويل مكافي» الصورة النضالية الحرّة التي تُدحض صورة الازدواجية والبؤس: موقف «هابرماس». كما تقدّم مثالا آخر عن كلّ الحركات المناهضة للاضطهاد والتّمييز، في تلكئها وصمتها المُلتبس. وهي أيضًا نزلت بصفتها فيلسوفة مناضلة، تُدحض مواقف متردّية لـ «مثقفين» عرب أو «كروازي»، الطاهر بن جلّون مثالا.

يصعب الحديث عن نهاية المثقف في الغرب، على الرّغم من كلّ هذا الاضطهاد الذي خرق النّسق المعرفي والسّياسي. ثمّة مشارب لا تزال حيّة. الحاجة ماسّة إلى «نيتشه» (Friedrich Nietzsche) لزج الميتافيزقا السّياسية الغربيّة، هذه الحاجة نبّهنا إليها مرارًا، ليس آخرها (مقال: «نيتشه» والمعلّقات)، «نيتشه» ملهم الفرسان، إن كان «هابرماس» يزعم أنّ الحداثة مشروع لم يُنجز، فتتجزه يقتضي تحيينًا نيتشياً بامتياز.

هل هي إذاً نهاية التّاريخ كما تصوّرها «فوكوياما» قبل أن يتحرّر من نظريّته التي ستنتهي إلى تسويغ الإبادة الجماعيّة؟ هل هي حتميّة صدام الحضارات كما تصوّرها «هانغنتون» (Huntington)، ليس من حيث بيان حدود الصّدع الثّقافيّ، وهو محقّ في ذلك، ولكن من حيث تأكيده على أفضليّة الحضارة الغربيّة؟ إنّ العنف الفائق الذي مارسه داعش والإرهاب الدّوليّ تفكيكا للدّول العربيّة، هو العنف الذي يكمله الاحتلال. ففي أصل الحكاية، أنّ الشّرق الأوسط هو جغرافيا الوقائع الحارقة، هو المَحرقَة الحقيقيّة التي لن تهدأ ما دام النّظام الدّوليّ مرتعنا للدّني به قوام الاحتلال: الإمبرياليّة الغربيّة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللغة العربية:

- القرآن الكريم.
- إدريس، هاني، زمن المحتلّ وزمن المقاومة، انظر كتاب: روح المقاومة وفلسفة الزمن، ط1، بيروت، دار الولا، 2015م.
- رضا، محمد رشيد، مجلّة المنار، المجلد الأول، ص 53-55، القاهرة، 1898م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

- Blum, William: L'Etat Voyou, L'Aventurine, Paris, 2002.
- Hentsch, Thierry, L'ombre de l'Occident dans le conflit israélo-palestinien.
- Herzl, Théodore, L'état Juif, Essai d'une Solution de la Question Juive, Édition Augmentée, Introduction par Baruch Hagani, Paris, Librairie Lipschutz, 1926.
<https://cjf.qc.ca/revue-relations/publication/article/lombre-de-loccident-dans-le-conflit-israelo-palestinien/>.
- <https://www.philomag.com/articles/levinas-et-israel-lethique-lepreuve-du-politique>.
- J'Accuse...! Lettre au Président de la République par Émile Zola, L'Aurore, 13 janvier 1898.
- Laurens, Henry, Raymond Aron analyse du conflit israélo-arabe, Matériaux pour l'histoire de notre temps, N° 96, 2009, Éditions La contemporaine.